نحو ترشيد الحوار مع الذات والآخر
رؤية مقاصدية

أ.د. لحسن الرحالي
Lahcen Rahali
PhD in Islamic Studies
Jurisprudence principles specialization
212610579569
Email : Lahsen_Rahali@hotmail.com

ملخص

يلقي هذا المقال أضواء على مفهوم الحوار، وبيان رؤية الشريعة الإسلامية للحوار مع الذات والآخر من منظور مقاصدي شامل، ويطمح إلى استخلاص أحكام كلّية ومبادئ عامة تنتظم في مجموعها على شكل قوانين وقواعد تضبط مسار الحوار ومنهجه وخطابه وأطرافه، لتقريب وجهات النظر المختلفة وبلوغ النتيجة المرجوة، وذلك وفق نظرة مقاصدية تمتح أصلها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتحاول صوغ ضوابط عاصمة، تمنع تسيب الحوار، وترشده في مسار متّزن راشد.

الكلمات المفتاح
الحوار ; الشريعة الإسلامية ;الحوار مع الذات ; الحوار مع الآخر

Abstract

The article sheds light on the concept of dialogue and the perspective of the Islamic al-Shariah on self-reflection. All from a dynamic and comprehensive Maqasid approach. It strives to draw holistic rulings and universal principles to organize the course and realisation of the dialogue.

This effort aims to bring together different points of view to achieve a comprehensive result. All according to the Holy Qur'an and the Noble Prophet's Sunnah.

Key words

Dialogue; Islamic law, dialogue with oneself; Dialogue with the other

لا نختلف أبدا في الاعتراف بأن "ترشيد الحوار" أضحى مطلبا حتميا في علاقتنا مع ذواتنا المسلمة، ومع غيرنا ممن نختلف معه دينيّا، إذ الحاجة اليوم مُلحّة إلى تجديد قضايا الحوار وتعزيز مكانتها وفق رؤية مقاصدية تسعى إلى تشكيل منطلق ثابت، يفتح آفاقا جديدة، وآمالا رحبة لتحقيق مجتمع حواري مُرشّد، تذوب فيه الخلافات القاصمة، والصراعات الدامية.

وقد قصد القرآن العزيز إلى صناعة الوعي الفردي و الجماعي بقيمة الحوار، وألقى إلى أولائك الذين تشرئبُّ أعناقهم إلى التّصالح مع ذواتهم نصوصا من الوحي تقصد إلى بناء كلّيات عامة لشقّ الطريق الآمن لحوارراشد واضح المسالك ؛ وأسّس لهذا الغرض وسائل وآليات تُعين على استدعائه في شتى صنوف الحياة ، وحفّه بأدبيات وخصال تزيّن مقام المحاوروتشدّ النفوس إليه .

ويعدّ الاستنجاد بالمقاصد الشرعية لتأسيس نموذج حواري أمرا أساسيا في ترشيد مساره، وتعزيز أثره في و اقع المجتمعات، وتمكينه من سُبل ناجعة لتشييد جسورالتواصل مع الذات والآخر، ونُشدان التو افق والتفاهم معهم، ومن خلال ذلك تسعى الشريعة إلى تحقيق مصالح الإنسان، وبناء العمران، واستتباب الأمن في الأوطان.

وإن من أسباب النكوص والتردّي في بعض الحوارات التي تجري بين المسلمين فيما بينهم، وبين غيرهم من غير المسلمين، إنما كان بتغييب مراشد الحوار المنبثقة من القرآن، التي تنبني على الاستقلال الفكري وحريته، والاضطلاع إلى تبيين الحق، والجري على لاحب سبيله، وقفو ما للمرء به علم، والثبات على المبدأ...

ويطمح هذا البحث إلى استخلاص أحكام كلّية ومبادئ عامة تنتظم في مجموعها على شكل قو انين وقواعد تضبط مسار الحوار ومنهجه وخطابه وأطر افه لتقريب وجهات النظر المختلفة وبلوغ نتيجة مرجوة، وذلك وفق نظرة مقاصدية تمتح أصلها من القرآن الكريم، وتحاول صوغ ضو ابط عاصمة، تمنع تسيب الحوار، وترشده في مسار متّزن هادئ، وذلك في أربعة مناحي:

- المنحى الأول: شرعية التحاوروأهلية المحاور
- المنحى الثاني: خطاب الحواروأدبيات التحاور
- المنحى الثالث: مادة الحواربين الاحتواء والتجاوز
- المنحى الر ابع: منهج الحواروحوار المنهج

المنحى الأول: شرعية التحاوروأهلية المحاور

نقصد في هذا المنحى إلى إظهار ما يتعلق بأطراف الحوار، من حيث الصفاتُ المطلوبة في عنصري التحاور، سواء كانا أشخاصا أو هيئات أو مؤسسات، ومهّدنا بهذا العنصر دون غيره لأهميته في منظومة الحوار الراشد، المبني على روح المسؤولية،والمتشبع بثقافة الحوار المثمر.

فلا يتصور في طرفي حوار انعدام الإيمان بقيم إنسانية مشتركة، تحملهما على الصدق في القول، والأمانة في النقل، والصراحة في الخطاب، وبنأيا عن الخلال الذميمة، والخصال الفاسدة، التي تمنع الحق من الظهور على لسانيهما وتحجب عيْن العقل والصواب عن منطقهما، ولقد دارت محاورات " بين الرسل و أقوامهم، وبين المصلحين والمفسدين، وعندما نتدبرها نرى الأخيار فيها لا ينطقون إلاّ بالصدق الذي يدمغ الأكاذيب، وبالحق الذي يزهق الباطل."[i]

ولا زهوق لباطل إلاّ بالتفاق طرفي الحوار على التأكيد بالتزام الحق والسّير على مهيعه، وهو خُلق قرآني مقاصدي دلتّ عليه جملة نصوص متضافرة تسعى إلى حمل الناس على النزوع إلى جانب الصّواب وتعزيزه، والابتعاد عن كل ما يشوّش طريقه من أباطيل وخرافات تصدّ عن التمسك بالحق، فقد تردد على لسان الأنبياء قولهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[ii]

وفي القرآن الكريم حوارات جرت بين أهل الملة الواحدة وبين أهل الحق والباطل وبين أهل الحق أنفسهم، وكان الأنبياء مع أقوامهم ينحتون صورة مشرقة لحوار حضاري، يرمي إلى نُشدان الحق، والسعي إلى تحرّي الصدق والتواصي به.

وعبّر نموذج الوحي المحمدي عن الصورة الناصعة للحوار الهادف، المتأصل بالآداب الإنسانية- الإسلامية، من التزام الثقة والاحترام المتبادل بين طرفي الحوار، وسيادة روح المحبة والمودة والأخوة الإنسانية، وذلك للانفتاح على الآخر، وتقريب أواصر الحوار الجاد معه، والترفّق به، ويستلزم بلوغ هذا المأمول"... تناسي ماض من التعارض وسوء الفهم، و إيقاف حالة العداء وحملات التشويه والتشكيك ضد الآخر،[iii] وفتح صفحة جديدة ملأها حوار منضبط بأخلاق التواصل وأدبياته الراقية ومقاصده الجليلة، فمن أحسن الحوار نال الجوار.

وتبعا لذلك، ينبغي لطرفي الحوار أن يتعاونا معا للذبّ عن حوزة الإنسان وكرامته وحريته، و الدفاع عن مكتسباته، وتحقيق حقوقه كاملة، وهذا من آكد الخصال التي ينبغي الاعتصام بها؛ فكم ضيّعنا بسبب التغافل عن هذا الضابط المكين !؟ سواء في حوارنا مع ذواتنا من بني عقيدتنا، أو مع غيرنا ممن يخالفنا عقيدة، فكل حوار لا ينطلق من هذه الأمور، فهو-لا شك- قاصر، لا يؤدي مبتغاه ، ولا يلبي مسعاه "...فالحوار لابد أن ينطلق من استعداد كل طرف لفهم الطرف الآخر، وتجنب إصدار الأحكام المسبقة، والاتفاق على إعادة صياغة صورة للآخر في إطار التفاهم والتسامح، والرغبة في بلورة قيم إنسانية مشتركة لإحداث التفاعل الحضاري."[iv]

ومن المعاني القرآنية المعينة على هذا التفاعل الحضاري استقلال كل طرف بحريته الفكرية الخاصة، التي تحمله على الدفاع عن رأيه والانتصار له بالحجة، وإظهار التكافؤ بينه وبين محاوره دفعا للتسلّط والقهر، وقد رسّخ القرآن الكريم هذه المعاني في آيات منها قوله عزوجل:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.[v]

وقوله عزمن قائل: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[vi]

ويتفرّع عن هذا الأمر أمر آخر لا يقل عنه أهمية، ولا يقصر عنه شأنا، وهو في حقيقته نفسي محض، فالتواضع والاحترام وتقدير الآخر رغم الاختلاف معه، كلّها أمور تجعل من الحوار مُسيّجا بالتوقير والإجلال ومُحاطا بكامل الهيبة والتعظيم؛ فالحوار الذي يقوم على التواضع والاحترام المتبادل بين الأطراف تكون نتائجه طيبة و آثاره حميدة، وفي أغلب الأحايين يوصل إلى ثمرات يحمد المتحاورون غبّها بعد حين، والعكس حاصل إذا أطلق كل لنفسه العنان، وسلّم نفسه للهوى والغرور والتعالي عن قدر مُحاوره، لأنّ"... الحوار الذي يكون مبعثُه الغرور والتعالي والتفاخر والتباهي بالأقوال فمن المستبعد أن يوصل إلى حق أو حقيقة أو اتفاق على ما ينفع."[vii]

وقد ضرب لنا القرآن الكريم أنصع الصور الدّالة على أهلية الحوار التي اتصف بها الأنبياء، فمنهم -على سبيل المثال لا الحصر- سيدنا شعيب عليه السلام وقومه، حيث دارت بينهما حوارات شديدة، لكنّها من جانب سيدنا شعيب عليه السلام امتازت بالتواضع الجمّ والأدب الرصين والحكمة البالغة والشجاعة المكينة، فألقي إليه سمعك وهو يحاور قومه بلين ورفق فيقول: ﴿ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾[viii]

ولا غرو أن في التوسّل باللين والحكمة والموعظة الحسنة في الحوار تحقيقا لمصالح جمة، و آثارا إيجابيا عدة، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[ix]

ومما يستتبع هذا الأصل أن يكون المُقدم على الحوار عالما بموضوعه، مُدركا لحيثياته وتفاريعه، محيطا بمسالكه، وقد نهنا القرآن الكريم إلى قفو ما لنا به علم، وترك الحديث عن ما لا نعلم، التزاما بالأمانة ، وعدم الكذب على الله، والتقوّل عليه، لذا استوجب حصول العلم والمعرفة بالشيء قبل الخوض فيه، قال سبحانه مؤكدا على هذا المعنى:" ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[x]

وينبه القرآن الكريم إلى نبذ التقليد المفضي إلى مفاسد فكرية وتصورية، تحنّط عقول المحاورين، وتنأى بهم عن شط الحق، والبحث عن الحقيقة، قال ربّنا تبارك وتعالى مجلّيا هذا المعنى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾.[xi]

وقال عزوجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[xii]

فكلّ حوار لا ينبني على علم كاف بالمسألة واطلاع شامل بها ، وحوط بمدركاتها، وتحرر من قيود التقليد الجاثمة عليها، فهو -لا شك- حوار خداج، قاصر عن بلوغ المراد ، ويجعل من طرفي الحوار – أو أحدهما- محطّ سخرية الجميع، وقد يسيء الجاهل بمسألة معينة بموضوع الحوار من حيث لا يشعر، فيمتنع بذلك التو افق على كثير من قضايا الخلاف الحاصلة، لأن محطّ التأسيس العلمي للحوار غائب أو يكاد، لأن كلّ خلل في التصوّر يُفضي إلى خلل في التّصرّف.

وتبعا لذلك ينبغي لكل محاور أن لا يغيّب عقله أثناء عملية الحوار، فلا يدخل في نقاش فارغ من حمولة علمية، أو مضمون فكري، أو بعيد عن متناول العقل، فالحوار الحقيقي هو حركة عقلية ونشاط ذهني يستدعي الحقائق ويحاكمها بمنطق العقل، والحوار والعقل شقيقان لا ينازع أحدهما الآخر، فالقضايا المراد التحاور فيها تبدأ في مرحلتها الفكرية ثم مرحلة الحوارية وتنتهي بحكم عقلي.[xiii]

هذا، ويستتبع العلم بقضية الحوار العلم بآليات الحوار من علم المنطق والجدل، حتى ينفي التعارض ويعرف وجوه الكلام، ويقلّب معانيه من زوايا عدّة، ومن أنظار مختلفة، ويعضض كلامه بحجج دامغة، وبراهين ساطعة، تزيل غشاوة الالتباس عن المسألة، وتجلّيها ناصعة واضحة، مع الاقتدار على ضرب الأمثال لتقريب المعنى، ونقل الصور التاريخية إلى الصور الو اقعية المعاصرة، والانتباه إلى وجه العبرة فيها.

وقد أرشد القرآن الكريم إلى الالتزام بضوابط المنطق في مناقشة الآخرين، تفاديا للاضطراب في إلقاء الحجج، وعدم ترتيب مستويات الحوار، مما يعود على أساسه بالإبطال ، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[xiv]، وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾.[xv]وقوله عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾[xvi].

ولعلّ العلم بقضية الحواروآلياته المُعينة على التواصل هو الكفيل بنيل الأطراف الثقة من لدن الذين يدافعون عن فكرتهم أو مشروعهم، سواء كانوا ينوبون عن أشخاص أو مؤسسات، أو هيئات علمية، أو مراكز اجتماعية، أو غيرها ... فإذا نال المتحاورن الشرعية منهم فقد حققوا تقدّما في مسار نجاح الحوار، إذ تمثيلهم والنيابة عنهم سيكون قاصدا ومؤسسا على رسمية الخطاب، ومساندا من طرفهم، لأنه اكتسب صفة المحاور الشرعي، الذي يتمتع بحقوقه كاملة في طرح الأفكار، والنظر في التصورات، ومناقشة الرؤى، وهو في حرزهم وكفالتهم، لأنه يناضل عنهم ويظهر فكرتهم بعقل وحجة وأدب، وهو ما يمنعه من التزلّف للآحادهم، و ابتغاء عرض دنيوي زائل على حساب الحق الذي يجب الدفاع عنه.

ولعل الناظر في هذا المنحى الأول " شرعية التحاور وأهلية المحاور" يرى أنه قد تفرّعت عنه مناحي أخرى ، يعضد بعضها بعضا، ويأخذ بعضها بحُجُز بعض، تناسقت كلّها في القرآن الكريم على شكل أسس منهجية عامة، تظهر كأنها روزنة علمية وأخلاقية تضبط سلوكيات المحاور، وترمي إلى تحصين المحاورين من الوقوع في مفاسد تمنع التواصل الميسّر، وتربأ بهم عن الانجرار وراء شهوات زائلة أو هوى متبع على حساب الحق، وتصرفهم عن المقصود الأصل للحوار.

المنحى الثاني: خطاب الحواروأدبيات التحاور

تختلف لهجة الخطاب الحواري من شخص لآخر، ومن هيئة أو مؤسسة لأخرى، ومردُّ ذلك إلى إحساس أحد أطراف الحوار بالاستعلاء والفوقية، وامتلاك الحقيقة، والاستبداد بها، والنظر إلى الآخر بنظر الدّونية، والبعد عن الصواب؛ و هذا النوع من الخطاب حاضر بقوة في أدبيات الحوار مع الذات والآخر معا، لذلك فخطاب الحوار العنيف المؤسس على إهانة الآخر واحتقاره وتبخيس مكانته، وتكذيبه بحق أو بباطل، مع قدر كبير من الخصومة والتسفيه، والحطّ من كرامته، هذا الخطاب لا يرفع إشكالا، ولا يحل أزمة، ولا يقرّب وجهة نظر.

ويقابله خطاب الحوار السلمي الهادئ اللّين، الذي يأخذ من صفو العقل والشرع سواء السبيل، ويمدّ جسور الاحترام، ويسعى إلى مخاطبة المخالف بالحجة والبيان، و والوضوح والبرهان، فهذا "...الأسلوب السلمي الذي يعتمد اللين والمحبة أساساً في الصراع، انطلاقاً من القاعدة الإسلامية الكبرى التي تعتبر سنن التدافع وموضوع الصراع بمختلف مستوياته ومجالاته وسيلة من وسائل الحركة المنفتحة للوصول إلى الهدف."[xvii]

ومن هنا لابد لكل حوار جاد أن يكون خطابه جادا محترما، متّصفا بالقول الحسن، ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾[xviii]، وقوله عز من قائل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[xix] وأن ينأى المتحاوران عن الطعن والتجريح والافتيات على الآخر، والتجنّي عليه؛ ويتمخّض عن هذه الأفعال نتائج سلبية وخيمة، تمنع من الرضوخ للحق، وتزيد من منسوب الاحتقان والصراع.

ويقدّم القرآن الكريم قواعد جليلة للتأسيس لخطاب مُنتج ومفيد، من ذلك قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[xx]

هذه الآية الكريمة تدعونا -معشر المتحاورين- مع "الذات" إلى المجادلة بالحسنى، مما يحملنا على البحث عن أنجع الوسائل لخطاب مقنع فعّال ومؤثر، قصد إقناع المحاور القريب بما نعتقده صوابا، ونقوّم الرؤى المختلفة التي قد نتشاكس في اعتبار صحّتها أو خطئها، و لا يمنع ذلك من أن نمدّ بساط التسديد والتقريب في كثير من القضايا التي تستدعي حوارا بناء يوصل إلى الحق المطلوب ويقرّب إليه زلفى.

وعرض القرآن الكريم صورة أخرى عن خطاب منفتح مهذّب مع "الآخر" في مساق الحوار مع أهل الكتاب ، وأرسى عليه العلماء أصلا رئيسا للمجادلة والمحاورة، قال تعالى : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[xxi]

وهذه الآية صريحة في طلب التحاور مع أهل الكتاب بخطاب هادئ وأسلوب راق، امتثالا لتعاليم الدين الحنيف، ولا يضرّ المحاور لو توجّه خطاب "الآخر" إلى التشديد والقسوة، بل يكفي أن نستحضر دوما، ونردد طُرّا قوله تعالى:""بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"، فهي تنطق بعمومها بوجوب التزام الخطاب الأحسن، والأسلوب الأحسن، فكريا وقوليا وعمليا.

ومن نواصع الصور عند سلفنا المبارك في تمثّل آداب الحوار الراقي واحترام الآخر وتقديره، واستدعاء الهدي القرآني والنبوي في ذلك، ما ذكره القاضي عياض في "ترتيب المدارك" حيث قال:" قال الليث بن سعد: لقيت مالكا في المدينة، فقلت له: إنّي أراك تمسح العرق على جبينك، قال: عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري، قال الليث: ثم لقيت أبا حنيفة، وقلت له: ما أحسن قول هذا الرجل فيك -يشير إلى مالك-، فقال أبو حنيفة:" ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام."[xxii]

ومما يعين على تحقيق هذا الخطاب النموذجي في الحوار أن ينأى المتحاوران عن التلاعب بالعواطف، و إيقاد نار المشاعر، وإلهاب النفس بصنوف الكلام السيّء، فقد تعودُ هذه التصرفات السّمجة على عملية الحوار بالبطلان، وتزيد من هوّة الخلاف بين "الذات" و" الآخر" على حدّ سواء، إذ المطلوب في مقام الحوار الرّفق مع المخاطبين، واللين في القول، واحترام مشاعر المحاور، وخلق جو بعيد عن الانفعالات المهيّجة؛ ولنا في الأنبياء عليهم السلام أسوة حسنة لمن كان يرجو حوارا مثمرا، ويصبو لنتيجة طيبة، قال عزوجل: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[xxiii]

ولا شكّ أنّ الذي يعصم خطاب الحوار من الانفلات، ويضبط مساره، ويُحادي به شطّ الإنصاف التزامه بما أسلفنا ذكره، فلربما فات مجتمعاتنا من الخير والمصلحة واجتماع الكلمة الكثير بسبب الجحود في الخطاب الحواري مع "ذواتنا" المسلمة من المختلفين معنا فكرا أو منهجا، أو مع "الآخر" ممن يختلف معنا دينا أو عقيدة.

المنحى الثالث: مادة الحوار بين الاحتواء والتجاوز

لابد لكل حوار من موضوع يدور حوله، ومحتوى علمي أو فكري يسعى إلى مناقشته، فمادة الحوار من أبرز العناصر التي يجب ضبطها في الحوار مع "الذات" أو مع "الآخر" حتى يستوعب طرفا الحوار مضمون ما ينصرف الحديث إليه في عملية التّحاور.

والناظر في شأن "مادة الحوار" يرى أن للعلماء موقفين متباينين :

أولهما: الانفتاح التام على مادة الحوار، بلا قيود ولا حدود، "ولا محرمات في الحوار وكل شيء قابل للحوار فلا مقدسات ولا محرمات."[xxiv]

ثانيهما: لا حوار مع الأديان، ويدعو لضرورة الانغلاق على الذات، وخاصة في وقتنا الراهن الذي يعيش فيه المسلمون تضييقا من" الآخر"، فهذا الرأي يتساءل عن فائدة الحوار " وأهل الكتاب يعملون كل وسائل التدمير والفتك بأرواح مئات الألوف من المسلمين في جميع أنحاء الأرض... أين هو الحوار والمسلمون مستضعفون بين هز ائم وفتن وهوان؟[xxv]

والناظر بعين الإنصاف يرى أن كلا الر أيين فيه نظر، فالأول فتح الباب على مصراعيه، و انفتح بلا قيود، ولا يخفى ما لذلك من آثار سلبية ومفاسد جليّة على أطراف الحوار، إذ لكل طرف خصوصية معينة، تمثّلُ من المساس بها شكلا من أشكال الخطورة التي تأتي على أصله، لأن فتح باب الحوار في كل شيء بلا محرمات ليس صحيحاً قطعا، وتحريم الحوار مطلقاً ليس صحيحًا كذلك ، بل هناك مَواطِنٌ يمكن أن تكون ساحة للحوار مع "الذات" ومع "الآخر" ضمن ضو ابط تضبط موضوعات الحوار أو مادته، وهي على ضربين: ضو ابط تضبط مادة الحوار مع "الذات"، و ضو ابط تضبط مادة الحوار مع "الآخر".

-أولا: الضو ابط التي تضبط مادة الحوار مع "الذات"

إن إمعان النظر في القضايا التي تكون مدعاة للحوار بين المسلمين أنفسهم في إطار الحوار مع "الذات" كثيرة ومتنوعة، لكنها ليست بالحدّة والقوة التي قد تكون بينه وبين "الآخر"، فقد يختلف المسلمون في أمور دنيوية تتعلّق بو اقعهم المعيش من حيث الاقتصاد أو الاجتماع أو التديّن أو السياسة أو غيرها من أمور الحياة، وهنا لا بأس في ذلك- بل هو مطلوب- مما يدفعهم لعقد لقاءات ومؤتمرات عامة أو خاصة لتدارس إشكالاتهم والتحاور فيها على أسس داعمة ومسلمّات متفق عليها،" وليس من الضروري أن يتفق المسلمون في هذا النوع من الفكر، ولا يلام أحد على الخلاف في هذا الباب، ولا يوجد مستند شرعي يمنع اختلاف الآراء في المسائل الشرعية، بل الإسلام يقرر حقيقة اختلاف العقول وتفاوتها[xxvi]، مما سيجعل حوارهم ذا نفع و إثمار، بفعل اجتماع الأفكار ومطارحتها على طاولة النقاش ومفاتشتها، و السعي إلى استفادة الجميع.

وقد تدعو الحاجة إلى عقد الحوار في مواد وموضوعات متعلّقة بأمور الدّين ومسائله المختلفة، منها في الدّرجة الأولى أمور العقيدة، وهي من القضايا الأصول، التي كثر النقاش في جزئياتها قديما وحديثا، وجعلت " الذات" المسلمة تعيش فترات من الانكسار في نسيجها العام، لانعدام الحوار الذي يجعل من قاعدة "الذات" فسيحة ومتكاملة، وبفعل تغييب آليات تقريب العقيدة لأبناء" الذات" الواحدة.

والأخطر من هذا أن بعض المسلمين جعلوا من العقيدة سيفا يشهرونه على غيرهم من المخالفين في بعض مسائلها، عوض محاولة إيجاد مناطق التلاقي والاتفاق لتصحيح عقائدهم وتقويم أودها ورأب صدعها؛...وهذا لا يعني أن باب العقيدة مفتوح لكل خائض، بل لابد من متمكّن فاهم بقطعيات النصوص ومسلّمات الشريعة في الاعتقاد.

ويحصل أن يختلف المسلم مع المسلم في مسائل الفروع، أو ما يسمى عند أهل العلم "بالخلاف الفقهي"، ووقوعه إنما هو للتوسيع عليهم، ورفع الإصر عنهم، وإظهار سماحة الدين، وفطانة الفقهاء وزكانتهم في بلوغ الأحكام من القرآن الكريم والسنة الشريفة والتوسّع في ذلك.

يقول الإمام بدر الدين الزركشي:"اعلم أن الله لم ينصب على جميع الأحكام الشرعية أدلة قاطعة، بل جعلها ظنية للتوسيع على المكلفين، لئلا ينحصروا في مذهب واحد لقيام الدليل القاطع."[xxvii]

و أبرز الإمام أبو إسحاق الشاطبي معنى هذه التوسعة قائلا:"ومعنى هذا: أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه، لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق لأن مجال الاجتهاد ومجالات الظنون لا تتفق فيه، -كما تقدم-فيصير أهل الاجتهاد مع تكليفهم باتباع ما غلب على ظنونهم مكلفين باتباع خلافهم، وهو نوع من تكليف ما لا يُطاق، فكان فتح باب للأمة للدخول في هذه الرحمة، فكيف لا يدخلون في قسم من رحم ربك ؟ فاختلافهم في الفروع كاتفاقهم فيها، والحمد لله"[xxviii]

ونجم عن هذا الخلاف الفقهي تدبير أهل العلم لمسالكه وضبط قواعده، وإظهار ما يجوز فيه الاجتهاد وما لا يجوز فيه، وهو ما عبّروا عنه في مدوّناتهم "بمسائل الاجتهاد"، وهذا الاختلاف كان منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، ثم التابعين وتابعيهم، حيث أحسنوا تدبيره، ورفعوا الملام عن الأئمة الأعلام، لمعرفتهم الأكيدة بأن المطلوب الأساس هو طلب الحق، وعبادة الله تعالى على هُدى وحُسن سبيل، وسيبقى باب الاختلاف في القضايا الفرعية مفتوحا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثانيا: الضوابط التي تضبط مادة الحوار مع "الآخر"

ليس هناك في الشريعة الإسلامية ما يمنع أن نلتقي مع "الآخر" في حوارات ولقاءات ومنتديات من شأنها أن ترتقي بواقع البشرية، وتقود إلى نهضة حوارية شاملة، تسعى إلى تطوير العقل البشري، وتحقيق الرفاهية لبني الإنسان في كل مكان وزمان، ولو توجّهنا تلقاء الكُلّيات الشرعية لوجدنا أن "من أجلّ مقاصد الشريعة تحقيق مفهوم الاستخلاف؛ وعمارة الأرض سبب الارتقاء بالإنسان، ويرتبط هذا النوع غالباً بالسياسة الشرعية والمصلحة المتحققة في كل عصر."[xxix]

أما الحوار في المسائل الدينية مع "الآخر" أو ما يسمى "حوار الأديان" فقد تباينت مواقف العلماء في شأنه، وأسالت مدادا كثيرا من لدن الدّارسين والباحثين، ويرى كل من المتحاورين أنه بفتح باب الحوار مع "الآخر" فإنه سيتنازل عن جزء كبير من دينه، ويكون بذلك في موقف الضعف والانهزام، إذ يرى كثير من الباحثين[xxx] أن سبب تأخر الحوار الإسلامي –المسيحي مثلا كان خوفا من هذا الأمر.

ويرى الأستاذ سعود المولى أن غاية هذا الحوار لا يعدو أن يكون مجرّد وسيلة لتسويق ظاهرة" التنصير"، وآلة لنشر الدعوة المسيحية، ويتساءل عن سبب" التركيز على التبشير وحوار اللاهوت؟ ولماذا التركيز على نيجيريا وماليزيا والفلبين وإندونيسيا في مؤتمرات الحوار وجعل عناوين هذا الحوار لاهوتية... نقول هذا الكلام لأننا من خبرتنا ومراقبتنا لمؤتمرات ولقاءات الحوار المنظمة على أيدي مجلس الكنائس العالمي... نلمح دائماً المسعى الواضح إلى تحويل هذه المؤتمرات واللقاءات حواراً لاهوتياً عقدياً ودعاية للتبشير، وكل ذلك لم ينتج سوى العداوة واللامبالاة في أحسن الأحوال"[xxxi]؛ وذهب آخرون إلى اعتبار مثل هذا الحوار "نفاقاً أو زينة مجردة تختفي تحتها نوايا سياسية في أغلب الأحيان.[xxxii]

وعلى كلّ حال، فإن اختلاف مواقف المانعين والمجيزين لا يمنع من مدّ جسور الحوار مع " الآخر" في مسمى" حوار الأديان"، وجعل مادة الحوار عرض قضايا التوافق والاختلاف في الديانات السماوية، وذلك لأن رسالة الإسلام رسالة حضارية شاملة، " وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ "[xxxiii]، فلابد أن تكون هناك نقاط مشتركة ينطلق منها الحوار لإنقاذ البشرية، وإصلاح الإنسان، ومحاربة التيارات الجارفة لكيانه، وإقبار هوّيته الإنسانية،

وغمسه في براثين العلمانية المسيطرة، ولا يمنع هذا من إيجاد حلول عملية للإنسان بصفة عامة، فقد جاء الإسلام لتحقيق إنسانية الإنسان، وانطلاقا من هذا المبدأ يمكن جعل مادة الحوار في الأديان مبعثا جديدا لابتكار وسائل حديثة للرّفع من قيمة الإنسان، وإحساسه بمسؤولياته تجاه العالم وذاته والآخر.

ومما يتوجّب في ضبط مادة الحوار مع "الآخر" التركيز على موضوعات تتناول قضايا الإيمان والفكر الديني –لدى الطرفين معا- وتمكينهما من استحضار قيمة هذين الأمرين في حياة الإنسان "الذات" "والآخر"، إذ بهما تتشكّل نواة الاتفاق، وتذوب شرارة الخلاف، وتضيق هوّة النزاع.

وبنظرة فاحصة إلى تعاليم الإسلام نلحظ أن القرآن الكريم قد أسس لهذا المبدأ ودعا إليه في صريح منطوقه، ووجّه أنظار المختلفين إلى الاجتماع على الكلمة السواء، التي يمكنها أن تكون أرضية مثمرة لحوار ناجح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[xxxiv]

وألمح الأستاذ حسن فضل الله إلى أنّ الآية تأسست على قاعدتين جليلتين للتعامل مع "الآخر":

القاعدة الأولى: التوحيد في مواجهة الإلحاد والمادية: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، فالتوحيد قاعدة ينبغي أن تحكم حركة الأديان في مواجهة المادية الملحدة التي تجعل الإنسان سلعة مادية تتحرك على أساس الغريزة بعيدا عن العقل، وعلى أساس الدنيا بعيدا عن الآخرة، ومن خلال هذه القاعدة يجب أن تطرح كل قضايا الإنسان في أي لقاء تحاوري بين الأديان.[xxxv]

والقاعدة الثانية: العبودية فقط لله في مواجهة الاستكبار والتجبر: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذه أيضاً قاعدة أخرى يجب أن تحكم العملية التحاورية بين الأديان، فالأديان لها دور كبير في حماية الإنسان من أن يتحكم في مصيره كل أشكال الاستكبار سواء كان الاستكبار السياسي أو الأمني أو الاقتصادي أو الاجتماعي، حتى لو كان بلباس الدين نفسه.[xxxvi]

وتبعا لذلك ينبغي لمادة الحوار مع "الآخر" أن تتّصف بقدر كبير من الاستعداد لتحقيق العدالة الإنسانية، التي تشكّل مقصدا عظيما من مقاصد الشريعة، ومحورها الرئيس قول الله تعالى:" ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[xxxvii] فإرسال الرسل وإنزال الكتب مظهر جلي من مظاهر العدل الإلهي، الذي ينبغي الالتفات إليه والالتفاف حول موضوعه في عملية التحاور لتكريس معاني العدالة المشتركة بين جميع الأديان، والدعوة إلى سبيل الاحتكام إليها، " فإدارة الحوار حول تجليات الظلم في الواقع، من خلال عناوين الاحتلال والإرهاب والإجرام، وضرورة استجلاء النظرة الدينية المشتركة تجاه هذه المفاهيم وتسخير المفهوم الديني للعدل والظلم في بيان منشأ ما يسمى بالتطرف والإرهاب والبيئة الظالمة والظروف المحيطة التي ألقت بظلالها على المتدينين كما في قوله تعالى:" ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾" [xxxviii]، وفي القرآن يتضح مفهوم العدل في قوله تعالى: "﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[xxxix-xl].

ولعلّ مُنصفا ممن يُبصر حال العالم اليوم يلحظ أن أعظم جريمة تستحق أن يُجتمع لأجلها ويعقد حوار بل حوارات، هي جريمة الظلم الذي يحيق بالمستضعفين في كل بقاع الدنيا، أمام مرأى ومسمع من "العلمانية المُجحفة" التي تمنع الدفاع عن إنسانية الإنسان إلاّ بشروط مادّية غوية، وترى مصلحتها في النزاع الدامي بين بني البشر.

وتجدر الإشارة هنا إلا أن أكبر مُرتكز في مادة الحوار مع" الآخر" هو موضوع الأخلاق الدينية ، والقيم الروحية، إذ الانصراف إلى التعريف بها والتعرّض لمشتركها، أمر مهم جدّا في حوار الأديان، وسيقرّب –لا محالة- من وجهات نظر المخالفين، وهي فرصة سانحة للتعريف بصورة الإسلام في أسمى معانيه الخلقية، ومقاصده العالية، " ولأن القيم الأخلاقية هي قاعدة البناء الحضاري، والأديان هي الجذور والمنشأ لها- لأن مصدرها هو الله-، لذلك نجد أن مسؤولية حوار الأديان هي التخطيط لحماية القيم من أن يتم تشويهها في حركة البناء الحضاري، لأن ابتعاد الحضارة

الحديثة عن القيم الدينية هو جريمة كبرى في حق الإنسانية[xli]، ولمّا كان الخطاب القرآني خطابا حضاريا فإنه يفسح المجال " للآخر" لإبراز مستوى التقارب في الجانب الأخلاقي قصد بناء صرح مشترك لحوار فعّال ومنتج؛ والحاجة اليوم أضحت مُلحّة " لإدارة الحوار حول القيم الدينية الروحية والأخلاقية في الأديان، في طبيعتها من حيث المفهوم، وفي حدودها العملية الواقعية، بهدف الوصول إلى نظام أخلاقي مستمد من الأديان يحكم حضارة هذا الزمان.[xlii]

المنحى الرابع: منهج الحوار وحوار المنهج

لقد عاب القرآن الكريم على أولئك المجادلين- المتحاورين- الذين يجادلون بلا قضية ولا منهج، ولا هدف محدد، وأغلظ عليهم القول في سياقات قرآنية متعددة، منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[xliii]، وردّدت الآيات صريح هذا المعنى في مواطن أخرى، منها قوله عزّوجل﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾[xliv]

وقد صوّر القرآن الكريم حال الذي يمشي على منهج مُسدّد، وحال الذي يمشي بلا منهج مُحدّد، وأضفى على حاله نوعا من الانتكاس والسير بلا قصد واضح، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[xlv]

ومن هنا تظهر قيمة المنهج في تبليغ رسالة المُحاور، والدفاع عن القضية التي نُصب من أجلها النقاش؛ والمنهج في حقيقة الأمر هو حجر الزاوية في نجاح حوار فعّال وقاصد، إذ التخبط في سوْق الآراء، والاضطراب في إيراد الشواهد، مع "الذات" أو " الآخر" يجعل من عملية التحاور ضربا من العشوائية في عرض الأفكار، والجزافية في التوصل إلى نتائج الحوار، فقيمة المنهج الإسلامي للحوار إذن هو الذي " يؤكد على الجانب الذاتي في الالتزام بالفكرة، مع إعطاء موضوع احتمالي للانفتاح على الفكر الآخر؛ ولتوضيح ذلك نقول: إن المنهج الحواري المعروف في العالم يختصر في هذه الكلمة: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"[xlvi]

يحتاج المحاور في منهج الحوار إلى التزام التصور الإسلامي في إيراد الدليل الواضح، والبرهان الجلي، والحجّة الدامغة، وفي كتاب الله تعالى مواقف كثيرة[xlvii] في مواطن متفرقة، تُفصح كلّها عن تعظيم مقام الدليل من لدن المحاور، وتنهض بأمره، إذ التسلّح بالحجة يجعل من عملية الحوار قائمة على ركائز متينة، تضفي مشروعية أكبر لمسلك الحوار، ويعضد منهجه في التواصل والنقاش؛ ولا جرم أنّ " العقلاء دائماً عندما تتضح لهم الحجة، ويظهر لهم البرهان، ويرون الدليل الساطع على صحة المسألة، يقتنعون بذلك، ويعترفون بالحق، أما السفهاء والجهلاء والمغرورن، فإنهم يُصرُّون على باطلهم، ويجحدون الحق عن علم به، لسوء نواياهم، وضعف عقولهم، وانطماس بصائرهم."[xlviii]

ومن أثر هذا الأصل الأصيل في منهج الحوار في التصوّر الإسلامي الالتزام التام بالموضوعية ، وهي التي تحمل صاحبها على الاستقامة على الموضوع الذي عقد من أجله بساط الحوار، ولا ينبري إلى خلط المواضيع، وتشتيت الكلام، وفتح قنوات حوارية أخرى تمنع الانشغال بالموضوع الأصل، وقد يمنع عدم " التزام الموضوعية" طرفي الحوار من التقدّم في مدارجه، وتوقّل مراتبه.

ولا ننكركم ضيّعنا في حوارنا مع "الذات" و"الآخر" بسبب تغييب هذا الأصل العاصم، فضاعت مع ذلك حقائق كثيرة، وفوائد كبيرة؛ فهذا سيدنا نوح عليه السلام حاور قومه في موضوع إرساله إليهم، فخاطبوه بغير موضوعه، وانحرفوا به إلى غير مقصوده، قال القرآن الكريم يحكي هذا الموقف ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فيرد عليهم نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾"[xlix]

ويتناسل من هذا الأصل تحديد الموضوع الرئيس الذي يجتمع عليه طرفا الحوار، حتى لا يخلط أحدهما الأفكار، ولا يُقحم موضوعا في آخر، ولعل من بدهيات المنهج الإسلامي في الحوار تحديد "نص الموضوع" ومحاوره العامة، لينضبط المُحاور معها، وتحصل الفائدة من بسط النقاش في موضوع واحد محدد، ثم الانتقال إلى غيره بمرونة ويسر،وهكذا...

ومن معالم المنهج الحواري الراشد استعمال مصطلحات معروفة، ومتواضع عليها، يفهمها المخاطب والمتكلم، ويصل معناها إلى أذن السامع بأدنى مشقة، إذ مرجع كثير من الأحكام الخاطئة، إنما كانت بسبب الفهم السقيم لبعض الألفاظ والمعاني الدائرة بين أطراف الحوار، فيحملها أحدهما على غير محملها الصحيح، وقد اعتبر الإمام سيف الدين الآمدي أن " الأصل في كل بلاء وعماء وتخليط وفساد، اختلاط الأسماء، ووقوع اسم واحد على معاني كثيرة، فيخبر المخبر بذلك الاسم وهو يريد أحد المعاني التي تحته، فيحمله السامع على غير ذلك المعنى الذي أراد المخبر، فيقع البلاء والإشكال، وهذا في الشريعة أضر شيء وأشدّه هلاكا لمن اعتقد الباطل، إلا من وفقه الله تعالى"[l]، كما أنّ"تحرير محل النزاع، يؤدي إلى حسن الاقتناع، فالألفاظ متى تحددت معانيها والقضايا متى وضحت معالمها، سهل الوصول إلى الاتفاق بين المختلفين. "[li]

ولابد للمحاور أن يستلهم منهج القرآن الكريم في التدرج في الحجة، والتدليل على كلّ مسألة مسألة بما يدرأُ عنها الالتباس، ويقربها إلى أذهان الناس، لأن ذلك يُثمر اتضاح سبيل الرؤية، ويفتح للمحاور أُفقا متواصلا للاستماع والانصات والتفاعل، ومن تم يكون جاهزا للاستيعاب، وأما إلقاء الأفكار جملة واحدة، وحشد الأدلة مجموعة، ومجابهة المحاور بها، وإلقائها في وجهه، فإنه مخالف لمنهج القرآن العظيم في عرض القضايا بالتدريج، بل يمنع ذلك من مواصلة الحوار ألبتة سواء تعلّق ذلك" بالذات" أو"بالآخر".

ونماذج هذا المنهج ومُثلهُ في القرآن الكريم متو افرة، منها ما خاطب به سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه في إثبات بطلان ما يعبدون، وذلك باستعمال منهج التدرّج، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[lii]

ولا يتصوّر في أي حوار كيفما كان نوعه وموضوعه، أن يكون حوارا متّصفا بالعبثية، لا مقصود منه ولا غاية، لأن ذلك يخرج به عن أساسه الذي بُني عليه، ويسمُ المحاورين بالعبثية وسوء تعيين الأهداف، والقرآن الكريم يوّجه الإنسان إلى تحديد القصد من أي فعل يُقدم عليه، وأن يو افق بذلك قصد الشارع، وقد قرر أهل العلم قديما أن" أفعال العقلاء منزهة عن العبث"، فاستدعى الأمر الاتصاف بالمسؤولية في اختيار الهدف وتحديده، والاستقلال به، وهو مقصد أخلاقي سام دعت الآيات إليه في صريح القرآن ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[liii]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَ أَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [liv]

ومما ترمي إليه النصوص القرآنية من مقاصد في قضايا الحواروجوب الثبات على المبدأ، وعدم الانجرارو راء كلّ دعوى، وقد نطق القرآن العزيز بهذا المعنى في غير ما آية، قال سبحانه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾،[lv]. وقال جل وعلا: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[lvi].

ومن تجليات الثبات على المبدأ أن " ألا يكون المحاور ملتزماً في أمر ما بضدّ الدعوى التي يحاول أن يثبتها ويدافع عنها، فإذا كان مُلتزماً بشيء من ذلك كان حاكماً على نفسه بأن دعواه مرفوضة من وجهة نظره" [lvii]؛ ومن

مُثل ذلك في كتاب الله تعالى، أي - سقوط دعوى المحاور بسبب التزامه بنقيض دعواه وقبوله-، استدلال بعض من أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بأنه بشر فقال الله تعالى على لسانهم: "﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾[lviii]، مع أنهم يعتقدون برسالة كثير من الرسل السابقين كإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء في نظرهم بشر وليسوا ملائكة، فكانت دعواهم ضد اعتقادهم، ولذلك أسقط الله زعمهم ودعواهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [lix]

خلاصة وثمرات :

نخلص من هذا البحث إلى النتائج الآتية:

أولاً: الدعوة الصريحة للإسلام للحوار مع الذات والآخر، والحث على احترام الرأي المخالف، ورسمه لمعالم كبرى لتيسير مسلك الحوار مع المخالفين والمو افقين، وارتضاء ثقافة الاعتراف بالآخر، وذلك بترسيخه لمفاهيم تجعل من عملية الحوار عملية مُثمرة ونافعة.

ثانياً: التصور الإسلامي للحوار مع " الذات " والآخر" تصور متكامل وشامل، يبتغي إرساء دعائم التو افق على المبادئ المشتركة، وفتح أبواب الاتصال بين الديانات والثقافات والمدارس المختلفة والأفكار المتنوعة، مع استحضار قدر كبير من مبدأ التوازن والاعتراف والاحترام.

ثالثا: النظرة الإسلامية للحوار ليست أمرا تجريديا مثاليا، بل هي تعاليم ورُؤى قابلة للتطبيق والممارسة، وقد هيأت الشريعة لتنزيلها آليات ووسائل تُراعى فيها الشروط والقواعد المُعينة على فتح قنوات الحوار الحضاري الراشد، ومنع منطق الحوار المبني على مجرّد الأنانية والتعالي على الآخر، وفرض آراءه بشعار الحوار.

رابعاً: عالج الإسلام موضوع الحوار من جميع منازعه الكبرى، سواء في شرعية التحاور وأهلية المُقدم على الحوار، من حيث أدبياتُه العامة وشروطه المُتعيّنة عليه، ليكون محاورا جامعا لشرائط الدفاع عن قضيته أو عقيدته أو اتجاهه الفكري، متحلّيا بخلال الأدب المطلوبة، وخصال العلم المرغوبة، حتى يكون ناطقا ناجحا باسم هيئته أو مؤسسته أو عشيرته.

خامسا: المحاور الناجح هو من يستقي منهجية حواره من منطلقات القرآن الكريم ، ويتشرّب تراسيمها العامة عند فتح الحوار مع "الذات" و"الآخر"، وذلك مما يحمله على التزام النزاهة في البحث عن الحقيقة، والدعوة إليها، وقول الحسنى على أي وجه كان، والالتزام بمبدأ طلب الحق والذود عنه.

سادسا: إن الحوار مع "الذات" بالحسنى يفتح أمامنا سُبلا سانحة للبحث عن أنجع الوسائل لخطاب مقنع فعّال ومؤثر، قصد إقناع المحاور القريب بما نعتقده صو ابا، ونقوّم الرؤى المختلفة التي قد نتشاكس في اعتبار صحّتها أو خطئها، و لا يمنع ذلك من أن نمدّ بساط التسديد والتقريب في كثير من القضايا التي تستدعي حوارا بناء يوصل إلى الحق المطلوب.

سابعا: إنّ أكبر مُرتكز في مادة الحوار مع" الآخر" هو موضوع الأخلاق الدينية ، والقيم الروحية، إذ محاولة التعريف بها والتعرض لمشتركها، أمر مهم جدّا في حوار الأديان، وسيقرّب من وجهات نظر المخالفين- بلا شك-، وهي فرصة

سانحة للتعريف بصورة الإسلام في أسمى معانيه الخلقية، ومقاصده العالية، وغاياته السامية.

ثامنا : هناك نقاط مشتركة ينطلق منها الحوار مع "الآخر" لإنقاذ البشرية، وإصلاح الإنسان، ومحاربة التيارات الجارفة لكيانه، و إقبار هوّيته الإنسانية، وغمسه في بر اثين العلمانية الحاقدة، بُغية إيجاد حلول عملية للإنسان بصفة عامة، فقد جاء الإسلام لتحقيق إنسانية الإنسان، و انطلاقا من هذا المبدأ يمكن جعل مادة الحوار في الأديان مبعثا جديدا لابتكار وسائل جديدة للرّفع من قيمة الإنسان، وإحساسه بمسؤولياته تجاه العالم وذاته والآخر.

تاسعاً: إن ما يمر به العالم الإسلامي من أحداث متلاحقة، واستثناء مُخيف، يدرك اليوم -أكثر من أي وقت مضى- أهمية الحوار أولاً مع "الذات"، لمحاولة تقويم اعوجاج الفكر، ومُراجعة المو اقف المُتباينة، والغرض الأساس من ذلك إعادة ترسيخ بُنيان بناء المجتمع الإسلامي ، ثم يستتبع ذلك الحوار مع "الآخر" غير المسلم لمدّ يد التعاون وتسهيل طريق المحافظة على بشريته وكينونته، وصون قيمه الإنسانية والأخلاقية.

عاشرا: إن سلوك منهج القرآن الكريم ومقاصده في ترشيد الحوار مع الذات والآخر مسلك آمن لحياة صّحية للمجتمعات الإنسانية، وسبيل أنجع لربط تواصل بنّاء وهادف، ترنو من خلاله جميع الأطراف إلى تحقيق مقاصد العيش المطمئن في بيئة سليمة تنشد القول الحسن والعمل الأحسن.

المراجع

القرآن الكريم برواية حفص.

أحمد مختار عبد الحميد ، معجم اللغة العربية المعاصرة، بيروت: عالم الكتب، ط.1، 2008 .

عبد العزيز الخياط، أدب الحوار، بيروت: سلسلة الفكر القراءة للجميع، ط.1، 2007.

يوسف الحسن، الحوار الإسلامي المسيحي... الفرص والتحديات، أبو ظبي: المجمع الثقافي ، ط.1، 1997.

كيرلس سليم بترس، أفكار وآراء في الحوار المسيحي الإسلامي والعيش المشترك، لبنان : المكتبة البولسية، 1999.

محمد سيد طنطاوي، أدب الحوار في الإسلام، القاهرة: دار نهضة مصر ، ط.1، 1997.

تيسير محجوب الفتياني، الحوار في السنة و أثره في تكوين المجتمع، عمان: مركز الكتاب الأكاديمي، 2001.

محمد حسين فضل الله، في آفاق الحوار الإسلامي – المسيحي، القاهرة: دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط.3، 2005.

اليحصبي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، المحمدية: مطبعة فضالة، ط.1.

ابن عبد البر النمري، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، بيروت: دار الكتب العلمية، ط.2، 1996.

عدنان علي رضا النحوي، حوار الأديان ... دعوة أم تقارب أم تنازل، القاهرة: دار النحوي للنشر ، ط.1،2001 .

محمد بن شاكر الشريف، الموقف من الرأي الأخر، لندن: مجلة البيان، ، العدد 206، 2004.

سعود المولى، الحوار الإسلامي المسيحي... ضرورة المغامرة، بيروت: دار المنهل اللبناني، 1996.

الآمدي سيف الدين، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي ، بيروت : دار المكتب الإسلامي ، ط3، 2010.

الهوامش:

[i] عبد العزيز الخياط، **أدب الحوار** ، (بيروت: سلسلة الفكر القراءة للجميع، ط.1، 2007) ، 31.

[ii] القرآن الكريم، سورة الزخرف، الآية: 81.

[iii] يوسف الحسن، **الحوار الإسلامي المسيحي... الفرص والتحديات**، (أبو ظبي: المجمع الثقافي ، ط.1، 1997)، 24.

[iv] كيرلس سليم بترس، **أفكاروآراء في الحوار المسيحي الإسلامي والعيش المشترك**، (لبنان : المكتبة البولسية، 1999) ، 123.

[v] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: 110.

[vi] القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية: 188.

[vii] محمد سيد طنطاوي، **أدب الحوار في الإسلام**، (القاهرة: دار نهضة مصر، ط.1، 1997)، 30-31.

[viii] القرآن الكريم، سورة هود، الآية: 88

[ix] القرآن الكريم، سورة فصلت، الآية : 33-34

[x] **القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية: 36**

[xi] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: 170.

[xii] القرآن الكريم، سورة الزخرف، الآية: 23-24.

[xiii] تيسير محجوب الفتياني، **الحوار في السنة و أثره في تكوين المجتمع**، (عمان: مركز الكتاب الأكاديمي، 2001) ،24.

[xiv] القرآن الكريم، سورة الحج، الآية: 8.

[xv] القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: 66.

[xvi] القرآن الكريم، سورة غافر، الآية: 56.

[xvii] محمد حسين فضل الله، **في آفاق الحوار الإسلامي – المسيحي**،(القاهرة: دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط.3، 2005)، 16-17.

[xviii] **القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: 83.**

[xix] **القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية: 53.**

[xx] **القرآن الكريم، سورة النحل، الآية: 125.**

[xxi] القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية: 46.

[xxii] اليحصبي عياض، **ترتيب المدارك** وتقريب المسالك، (المحمدية: مطبعة فضالة، ط.1)، ج.5، 211.

ابن عبد البر النمري ، **الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط.2، 1996)، 56.

[xxiii] **القرآن الكريم، سورة طه، الآية: 44**

[xxiv] محمد حسين فضل الله، **في آفاق الحوار الإسلامي – المسيحي**، 11- 12.

[xxv] عدنان علي رضا النحوي، **حوار الأديان ... دعوة أم تقارب أم تنازل**، (القاهرة: دار النحوي للنشر، ط.1،2001)، 29.

[xxvi] محمد بن شاكر الشريف، الموقف من الرأي الأخر، (لندن: **مجلة البيان**، العدد 206، 2004)، 11.

[xxvii] ، بدر الدين الزركشي، **البحر المحيط في أصول الفقه**، ج.8، 120.

[xxviii] الشاطبي أبو إسحاق ، **الاعتصام**، ج. 2، 170-71

[xxix] محمد بن شاكر الشريف، **الموقف من الرأي الأخر**، 12

[xxx] منهم الأستاذ عدنان رضا النحوي حيث يقول: "أما بالنسبة لحوار الأديان فأرى الواقع يختلف، فما هي القضية وما هو الهدف؟ حتى أصبح مصطلح الحوار وهماً غير محدد، إلاّ أن الهدف - كما يبدو - ليس التنازل الكلي عن معتقد أو دين، وإنما محاولة الوصول إلى حل وسط أو نقطة لإزالة الخلاف- كما يقال-، وهذا وإن صح، قد يفرض التنازل الجزئي، وأنى يستقيم الدّين مع تنازل مهما كان جزئياً؟! وأنى للنازل أن يرفع الخلاف؟!. **حوار الأديان ... دعوة أم تقارب أم تنازل**، 17.

سعود المولى، **الحوار الإسلامي المسيحي... ضرورة المغامرة**، (بيروت: دار المنهل اللبناني، 1996)،39.[xxxi]

[xxxii] يوسف الحسن، **الحوار الإسلامي المسيحي ... الفرص والتحديات**، 41.

[xxxiii] القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية: 107.

القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: 64. [xxxiv]

[xxxv] محمد حسين فضل الله، **في آفاق الحوار الإسلامي – المسيحي**، 27؛ عدنان علي رضا النحوي، **حوار الأديان، دعوة أم تقارب أم تنازل**، ، 20.

[xxxvi] محمد حسين فضل الله، **في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي**، 27-28.

القرآن الكريم، سورة لحديد، الآية: 25.[xxxvii]

القرآن الكريم، سورة القصص، الآية: 17[xxxviii]

القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية: 8[xxxix]

[xl] محمد حسين فضل الله، **في أسس الحوار بين الأديان**، 59

[xli] في أسس الحوار ، محمد فضل الله، 65

[xlii] في أسس الحوار محمد فضل الله، 66

القرآن الكريم، سورة لقمان، الآية: 22[xliii]

[xliv] القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: 66

القرآن الكريم، سورة الملك، الآية: 22[xlv]

[xlvi] محمد حسين فضل الله، **في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي**، 19. والقولة الأخيرة للإمام محمد بن إدريس الشافعي.

[xlvii] منها **قوله سبحانه:**

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

البقرة 258.

طنطاوي، **أدب الحوار في الإسلام**، ، 26[xlviii]

القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيات: 60- 61-62[xlix]

[l] الآمدي سيف الدين، **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، (بيروت : دار المكتب الإسلامي ، ط3، 2010)، ج.8، 564.

محمد سيد طنطاوي، **أدب الحوار في الإسلام**، 23.[li]

[lii] القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية: 76-78.

[liii] القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية: 39-40.

[liv] القرآن الكريم، سورة يونس، الآية: 41.

[lv] القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: 64.

[lvi] القرآن الكريم، سورة المزمل، الآية: 10.

[lvii] تيسير محجوب الفتياني، **الحوار في السنة**، 38

القرآن الكريم ، سورة الفرقان، الآية: 7 [lviii]

القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآية: 20 [lix].